الفصل السابع
الأمانة

الإخلاص والأمانة متلازمان في كل الظروف لأنهما متداخلان بشكل فعال في أطار يجمعهما معا في قالب واحد فلا إخلاص بدون أمانة ولا أمانة بلا إخلاص والأمة اليابانية لديها مفهوم خاص جدا بها عن مبدأ الإخلاص وواجب الأمانة وربما أنتقد الأميركيون هذه الفضيلة اليابانية لإسرافهم في التفاني لملكهم ولكن هذا يتطلب منا فهم كيف غرست هذه الفضيلة في نفوسهم على هذا النحو بصرف النظر عن صحة أو خطأ رأي الأمريكان فيها .

هذا المبدأ يندرج عند اليابانيين تحت طاعة الوالدين والولاء لهم وبالتالي يكون الولاء الأعظم للملك أو الأمير الذي يحكم وتقتضي التقاليد والأعراف تفاني الخادم الأمين في محبة سيده وألمح شكسبير عن قصة حدثت في تاريخ اليابان وأشاد بها أنها تستحق أن يكون لها مكان في التاريخ ومفادها أن أحد نبلاء اليابان (ميشيزانه) نفي من بلده بسبب الغيرة والحسد ضده، وسعى أعداءه للقضاء المطلق على عائلته كلها، وكان له أبن يدرس في قرية بعيده على يد أستاذ يدعى (جانزو) وكان هذا الأستاذ شديد التمسك بالقيم والمبادئ

وكان أيضا عبدا للنبيل المبعد، وحين علمت السلطات بأمر الفتى أصدرت أوامرها بإعدامه على الفور، وعرف المدرس الخبر فأضطرب وأنزعج وبات في حيرة من أمره، ماذا يفعل ليحافظ على الفتى الذي ائتمنه عليه والده النبيل وانتهى به الأمر إلى البحث عن بديل يفتدى به الفتى ولم يجد سوى أبنه لشدة الشبه بينهما في الصفات والعمر، وعند حضور مندوب السلطات للقبض على الفتى عزم المدرس أن يقتل رسول الحكومة إذا افتضح الأمر أو يقتل نفسه لأنه لا يحتمل رؤية هذا المشهد، ودخلت الحيلة على رسول الحكومة فقبض على الشبيه، وهرول الأستاذ فرحا مهللا لزوجته والابتسامة تعلو وجهة يبشرها بأن فتاها برهن على تعلقه وإخلاصه لسيده .

هذه القصة برغم ما فيها من الوحشية والظلم والألم وربما تعتبر من أعمال الجنون ولكنها تربية يابانية للنفس لفهم الحياة بأسلوب خاص بأمة دون سائر الأمم، تربية منفردة بعيدة كل البعد عن الفكر الأوروبي المتحضر الذي تنفصل فيه الأم عن أبنها أو بنتها حين تبلغ سن الرشد أو قبل ذلك قليلا، تربية فردية متطرفة للفداء عكس أوروبا التي تتحدث عن استقلال المنافع والمصالح الذاتية بين الأب وأبنه وحتى بين الزوجين في حين نرى الأسرة اليابانية متشابكة متلاحمة شديدة الترابط إلى أقصى الحدود بغريزة يصعب تفتيتها أو

حتى تجزئتها كل يفتدي بحياته من يحب ويقدمها عن طيب خاطر لمصلحة الآخرين.

وفي تفاني الشعب لملكه يقول منشيوس " لقد زودت السماء عامة الشعب بموارد طبيعية للخير ولكنها لا يمكن أن تجعل منهم أخيارا، والملك مفوض من السماء بواجب تعليم الشعب ليكشف الطاقة الخيرة الموجودة فيه، ولما كانت هذه هي أرادة السماء قد أناطت به هذه المسئولية فإن الملك يتطلع إلى السماء على أنها أبوه ولذا فإنه من الملائم جدا أن يطلق عليه أبن السماء ".

والبوشيدو تبنت هذه الأفكار للإخلاص للملك وتتباهى نساء اليابان بإشباع أطفالهن بحب الملك والإخلاص له والتفاني في سبيله حتى شملت هذه الظاهرة جميع الطبقات العامة والمتعلمة واستطاعت أن تفصل بدقة بين التملق والإخلاص فأحييت في نفوسهم الضمير المتحكم في إرادة الإنسان وإيمانه العميق بالولاء فالحياة بالنظرية اليابانية هي وسيلة جادة للإعراب عن إخلاص نبيل وصادق نحو السيد أو الحاكم ،والبوشيدو في تكوينه الأخلاقي على هذه المبادئ يجعله يميز بين الصالح العام والحب الجارف للسيد والحاكم لأنه يعتقد أن السلطة العليا بمثابة أب أكبر وليس الفرد إلا جزء منها ويصبح في مقدمات واجباته أن يحيا من أجلها ويستميت في الدفاع عن كيانها وأوامرها، هذه الفكرة حقيقة لا سبيل للشك

فيها ويرى البعض أن ألمانيا حين تفوقت وسادت العالم لثمرة الإخلاص والولاء التام، وبنظرة إلى التاريخ الإقطاعي نجده قد أقام بنيانه على الإخلاص المدعم بالأمانة والصدق بين السيد ورعيته، ودلل الإمبراطور " ياو " في الصين حين حكم بلاده قبل الميلاد على عدالة الحاكم ونزاهته بأنه كان يعيش في كوخ سقفه من قش غير منسق وكل خشبية من البلوط غير المدهون وكان يأكل العصيدة المصنوعة من الذرة العويجة وكان حساؤه يصنع فقط من الخضروات وكان غطاؤه في الشتاء جدل الغزال وفي الصيف القماش الخشن أي أنه كان أشبه بحارس بوابة ويعمل بيديه في مزرعته ، وبينما كان يعمل كانت تبدو فخذاه نحيفتين ولم تكن هناك أعمال سخرة أشق مما فعله فقدم نموذجا من الصعب تكراره وجمع الناس حوله في حب جارف وإخلاص غير محدود، ويرى (هان فاي تزو) أن الحكام لابد أن يكونوا محبين للخير وعادلين، وتلك التصرفات جعلت من الممكن أن يأمل المرء في أن يصبح ملكا بينه وبين نفسه وفقا لهذا المنهج النبيل.

ويؤكد كونفوشيوس أن عظمة أي تعاليم هي تحويل الكائنات البشرية وجعلها اجتماعية ويقول:" أن الزعيم المخلص هو الذي يجعل رعاياه يشعرون بأنه يعتمد عليهم ولذلك تكون خدمتهم له أكثر أمانة ما لو كان حاكما أكثر ذكاء يستغل رعاياه فقط بوعدهم بمكافآت كبيرة ويهددهم بالعقوبات الصارمة ليحقق أغراضه" .

وكما يقول (هان فاي تزو)" يستطيع الحاكم الذكي أن يجبر الناس على أن يفعلوا ما ينبغي عليهم أن يفعلوه ولا يحدد قدرا من الفضيلة الذاتية للأفراد ويمكن لمثل هذا الحاكم أن يعمل بالأسلوب الذي يسميه العلماء (الأسلوب الفاضل) بأن يكون شفوقا على الشعب ويساعده في شدته وان يساعد الفقراء بتقديم معونة لهم مأخوذة من ضرائب على الأغنياء ".

وعلى النقيض نادى بعض الفلاسفة بضرورة الحزم والشدة في إدارة الحكم وقالوا:" أنه من الخطأ أن نقرن الحاكم بالوالد أو أبن السماء والحاكم لا يجب أن يشعر بحب تجاه شعبه". وهناك قصة تروى "أن حاكم ولاية (تشن) قد شفي من مرضه وسمع أن بعض أفراد شعبه قد ضحوا بثور كي يشفى، فعاقبهم على فعلتهم لأن الحب بين الحاكم والرعية سيفسد الحكم على حد زعمهم، ولذا يجب أن يقتل في المهد، ولا يسمح بقيام أي تعاطف أخرق بينه وبين أقرب المقربين له من وزرائه ، إذ كلما كانوا أكثر اندفاعا نحوه كانوا أكثر احتمالا لاغتياله والانقلاب عليه ويجب إلا يمنحوا سلطة أو نفوذ وألا يعير اهتماما كبيرا لنصائحهم[٤٠] "

وحاكم (تشن) سنة ٢٢١ ق.م له في التاريخ صفحات دموية طويلة لبسط نفوذه على كافة أرجاء الإمبراطورية والسجلات تروى

[٤٠] المرجع السابق ص ٢٧٤ – ٢٧٨ .

لنا أنه أرسل سرا أعوانا كانوا مزودين بالذهب والمجوهرات لإغراء السادة الإقطاعيين ليتحالفوا معه، وأما أولئك الذين لا يمكن أن يرتشوا أرسل إليهم بسفاحين ليتولوا قطع رقابهم وبعد سلسلة من الفتوحات، وأثناء احتفال القادة بجني ثمار الحرب قيل أنه ذبح أكثر من ٤٠٠.٠٠٠ جندي دفعة واحدة كانوا قد استسلموا له، وربما يكون الرقم مبالغ فيه وحتى لو افترضنا نصف العدد فسيظل العدد كبيرا، وبهذه الأخلاق بسط نفوذه على الإمبراطورية كلها ولكن تشكلت طائفة من أولئك الذين فروا إلى الجبال وأنضم إليهم كل من يرفض العيش في ظل الدكتاتورية التسلطية وكونوا عددا كبيرا من العصابات وقطاع الطرق، ومات الإمبراطور بعد أقل من أحد عشر عاما وإذ بالإمبراطورية التي أنشئت لتدوم لعشرة قرون تتهاوى كما لو كانت بيتا من ورق ورفع أحد الفلاحين راية الثورة، وتجمع حوله أغلب الشعب ولكنه قتل بعد أشهر قليلة، وقتل معه حفيد كنفوشيوس الثامن، والذي كان أكثر المستشارين تقربا له، ولكن هذا الأجراء لم يوقف الثورة التي انتشرت كحريق في البراري. [٤١] "

وإذا نحن تأملنا هذه الحوادث في نزاهة بين نظريات الشدة والحب نرى بما لا يدع سبيل للشك أن الإخلاص والأمانة هما السبيل إلى المنطق العادل، ويقرها المنطق والعقل السليم وتعود منافعه على

[٤١] المرجع السابق.

الجماعة والأمة وعلى الحاكم نفسه، والتاريخ أثبت صحتها وسلم بقيمتها الفعالة.

وزعم (سبنسر) استحالة التوفيق بين الإخلاص للحكومة وبين الإخلاص لفكرة ثانية وكان لهذا الزعم آثاره السيئة في ردة الفعل في الأوساط العلمية اليابانية لأنه زعم أن التفاني في الدين والتمسك برجاله والطاعة للقائمين عليه يصرف الأمة عن واجبها السياسي ويحول جهدها عن القومية والوطنية إلى التفسخ والانحلال الاجتماعي. والبوشيدو يرون خلاف ذلك تماما لأنهم يؤمنوا بالرأي القائل "كل سلطة حكومية تحاول الاستئثار بوجدان الإنسان، وتحرم عليه الانتفاع من حب الدين تكون في انحلال، وتنادي تعاليمها بعدم تسخير الضمير والموافقة على أن يكون مطية لحاكم أو ملك ، هذا هو دستور وتقاليد البوشيدو في فهم الأمانة والفروسية الجيدة عند الأمة اليابانية.